

المعالجة النقدية لسينما الثورة الجزائرية - بحث في المفهوم والأداء
Critical processing for the Algerian Revolution Cinema -Research in the
Concept and Performance

صبيرة بoudina¹

1 جامعة امحمد بوقرة بومرداس (الجزائر) sabiraboudina@yahoo.com

صليحة بردي¹

¹ جامعة جيلالي بونعامة بخميس مليانة عين الدفلى (الجزائر) salihaberdi@gmail.com

تاريخ الارسال 2025-07-17 تاريخ القبول 2025-08-13 تاريخ النشر 2026-03-26

ملخص: تعد السينما في معالجتها الفيلمية للحدث الثوري أهم وسيط ثقافي وحضاري يعنى بالتسجيل التوثيقي لهذه المحطة الحاسمة في تاريخ الجزائر، فضلا عن تقديمه التقني للشخصية التاريخية والتعمق في رصد مختلف أبعادها، وإذا كانت المعالجة السينمائية تركز أساسا على التيمة التي يتحدد في ضوئها التخرّيج الدرامي، فإن السينما الجزائرية قد اتخذت من الثورة أهم تيمة لها خاصة في الفترة التي شهدت الحدث، وفي السنوات التي أعقبت الاستقلال، وبعدها أيضا، وإذا كنا نثير سؤال التخرّيج السينمائي للثورة الجزائرية فإن المشهد البحثي لا يستقيم دون وقفة مفاهيمية تناقش المصطلحات الآتية: الثورة/التاريخ، السينما الثورية، وقد استطاع البحث أن يوضح أهمية السينما الثورية في المشهد الثقافي من ناحية وفي دعم القيم التراثية والشعبية، والتاريخية من ناحية أخرى لاسيما في تثبيت دعائم الوعي الجماهيري عبر وصل الماضي بالحاضر.

كلمات مفتاحية: السينما، الثورة الجزائرية، الفيلم الثوري، تاريخ الجزائر، التخرّيج السينمائي.

Abstract:

Cinema in its film treatment of the revolutionary event, the most important cultural and civilizational medium concerned with the documentary recording of this decisive stage in the history of Algeria, as well as its technical presentation of the historical figure and in-depth monitoring of its various dimensions, and if the cinematic treatment is mainly based on the theme in which the dramatic graduation is determined The Algerian revolution has taken its most important theme, especially in the period that witnessed the event, and in the years following independence, and afterwards as well, and if we raise the question of cinematic graduation of the Algerian revolution, the research scene is not straightforward without a conceptual pause discussing the following terms: revolution / history, revolutionary cinema. The research was able to clarify the importance of revolutionary cinema in the cultural scene on the one hand and in support of heritage, popular and historical values on the other hand, especially in establishing the foundations of public awareness by connecting the past with the present.

Keywords: Cinema; the Algerian revolution; revolutionary film; Algerian history; cinematic graduation

مقاربة في المفاهيم:

أولا: الثورة/التاريخ:

مصطلح الثورة (Revolution) متداول في الخطابات السياسية والتاريخية، وهو مشتق من «الكلمة اللاتينية (Revolution)»؛ بمعنى حركة شيء من مكان إلى آخر، وقد استخدم المصطلح في فجر الحقبة الحديثة؛ للإشارة إلى كل من اندلاع اضطراب سياسي الذي يتطلع إلى إحداث تغيير على مستوى السلطة الحاكمة، ثم اتسعت دائرة استعمال هذا المصطلح لتشمل كل «تغيير جذري في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية خارج البنية الدستورية للدولة سواء كانت سلمية أو عنيفة»¹، ويمكن بيان دلالات مصطلح الثورة بالنظر إلى جملة من المقابلات؛ مثل (الثورة/قلب نظام الحكم).

تلتقي الثورة بقلب نظام الحكم في مسألة التغيير المقصود، في حين يختلفان في المصدر؛ فالثورة مصدرها الشعب، وقلب نظام الحكم مصدره مجموعة من الأفراد، مع اختلاف في الأهداف؛ فالثورة تسعى لتغيير نظام الحكم السائد، أما الانقلاب فيسعى لتغيير خارطته السياسية.

ويمكن تفسير رد الفعل الثوري بـ «المحصلة الكلية للظروف الموضوعية المعبرة عن الأزمة الاقتصادية والسياسية لنظام اجتماعي معين، والمحددة لإمكانات قيام ثورة اجتماعية»²؛ تفيد معنى افتعال حركة من شأنها قلب موازين الأنظمة التي تحكم الشعب، وإن كانت هناك مؤشرات تقود إليها، فإنه لا وجود لقاعدة ثابتة في تفسير الثورات؛ إذ تختلف باختلاف أوضاع الشعوب، وكذا حاجاتها.

وأما التاريخ (History/Histoire) فمصطلح يفيد في دلالاته اللغوية معنى «تعريف الوقت، وتاريخ الشيء؛ وقته، وغايته»³، التي يؤرخ لها بالوقت نفسه، ويقترن التاريخ بالوقت؛ ويفترض فيه «تعيين وقت يُنسب إليه زمان يأتي عليه أو مطلقا سواء كان ماضيا أو مستقبلا».

¹ - الصادق بولعراوي، أثر الثورة على القواعد الدستورية، مجلة أبحاث قانونية وسياسية، جامعة جيجل (الجزائر)، المجلد 06، العدد 01، جوان 2021م، ص 511.

² - لجنة من العلماء والأكاديميين السوفياتيين، الموسوعة الفلسفية، إشراف روزنتال ويودين، ترجمة سمير كرم، مراجعة جورج طرايشي وصادق جلال العظم، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، (د.ت.ط)، ص 582.

³ - جميل صليبا، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية، ج 1، مرجع سابق، ص 227.

تتحدد الدلالة اللغوية لمصطلح التاريخ بالإسناد الزمني في الإحالة إلى الماضي أو المستقبل، مع تنوع في المحمولات فقد بالدين أو السياسة، أو المجتمع، أو غير ذلك، من مجالات المعرفة، كما يعمل التاريخ على تأطير الوقائع الإنسانية عموماً.

ويأخذ التاريخ معناه تحت توصيف «واقع وسيرورة تاريخية يمكن معرفتها بصورة موضوعية»⁴، أي إنه يقوم على محددات قصدية في تأويل الواقع التاريخي.

وإذا تعقبنا أثر هذا المصطلح في الاستعمال المعرفي الإنساني، وجدناه ينزع إلى التعدد المفاهيمي؛ إذ «لم يكن لكلمة تاريخ في الماضي معنى واحد، فقد كانت تدل عند "سقراط" على المعرفة، وعند "أرسطو" على مجرد جمع الوثائق، حتى أن "التاريخي" عند بعضهم ضد النظري، أو المنطقي؛ بمعنى أنه قد يكون هنالك بين الأمرين رابط منطقي من دون أن يكون بينهما رابط تاريخي واقعي»⁵.

تؤدي الكتابة التاريخية أدواراً جوهرية في توطيد العلاقات بين الأفراد خاصة أولئك الذين يملكون تاريخاً مشتركاً، هو في نهاية من صنعهم، كما أن جميع القيم الصادرة عنهم إنما تكتسب في مواقف تاريخية تقودهم إلى ذلك باعتبارها وسيطاً استراتيجياً لذلك.

ثانياً: الفيلم الثوري/السينما الثورية:

يستوقفنا في هذا المفهوم مصطلح الفيلم (Film) الذي يفيد في اللغة الإنجليزية معنى «- غشاء، بلورة - تعني أولاً بلورة التصوير الضوئي، ثم الشريط المتقّب المغطى بطبقة حساسة للضوء تسمح بتسجيل الصور وحفظها، ومن باب التوسع أصبحت تعني العمل السينمائي، ومجموع الأعمال المنظور إليها حسب مجالاتها؛ كالقلم الخيالي، وفلم المحفوظات، إلخ، وبالمقابل فهي على العموم لا تستعمل في الحديث عن الأفلام القصار»⁶.

يقوم الفيلم على مجموعة من المعالجات التقنية في الصوت والصورة، وهو ينقسم إلى عدة أنواع بالنظر إلى مجالاته؛ فهناك أفلام الخيال، وأفلام المحفوظات، وغيرها، وفي تحديد أكثر توسعاً أطلق العمل السينمائي بتيماته المتعددة.

وهناك "الفيلم التاريخي" الذي يدخل بقوة في صناعة السينما؛ و«يطلق مصطلح الفيلم التاريخي على الأفلام التي تصور أحداثاً واقعية متعلقة بتاريخ الأمة شريطة أن لا تدور هذه الأحداث في نفس فترة

⁴ - مجموعة من المؤلفين، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، ترجمة رضوان ظاظا، مراجعة المنصف الشنوفي، عالم المعرفة سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 221، مايو 1997، ص 157.

⁵ - جميل صليبا، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية، ج 1، مرجع سابق، ص 227-228.

⁶ - ماري - تيريز جورنو، معجم المصطلحات السينمائية، إدارة ميشيل ماري، تر. فائز بشور، (د.ت.ط)، ص 46.

تصوير الفيلم؛ أي إنها تتناول أساسا وقائع من الماضي، ومواضيعها لها صلة وثيقة بالسياسة كمجال عام»⁷.

ومن أهم المحدّدات المفاهيمية للفيلم التاريخي أنه «يعالج الأحداث التاريخية، ويحاول أن يصوغها بطرق مختلفة، طبقا للطريقة التي يريد تقديم الأحداث بها، فهناك من يجسد الحادثة بما هي واقعة، هناك من يحاول أن يسلط الضوء على شخصية معينة ليظهر إنجازاتها، وهناك من يريد أن يطعن بحضارة ما أو بشعب من الشعوب، ولهذا اكتسب الفيلم التاريخي أهمية بالغة؛ كونه يمثل وثيقة سمعية بصرية يكن الاحتفاظ بها واستخدامها في أي وقت»⁸.

وتتعدد طرق تقديم الأحداث في الفيلم التاريخي؛ فمنها ما يجسد البعد الواقعي للحادثة التاريخية في محاولة لمحاكاتها كما وقعت فعلا، ومنها ما يركز على الشخصية من خلال عرض منجزاتها، وهناك التقديم المتحامل على مرجع تاريخي معين.

وإذا كنا نطرح سؤال القصدية من المعالجة السينمائية للتاريخ فـ «إنّ أهمية الفيلم التاريخي لا تكمن فقط في وظيفة نقل التاريخ وحفظه بل تتعداها إلى أهمية الوسيلة في حد ذاتها، فقد أثبت تطور وسائل الإعلام عموما والسينما على وجه التحديد وجود حاجة ماسة إلى أشكال تعبيرية معاصرة وحديثة من أجل كتابة وتوثيق الأحداث»⁹.

وإذا كنا نتساءل بخصوص تلقي العمل السينمائي التاريخي فإننا سنناقش الإقبال الجماهيري الواسع على هذه النوعية من الأفلام، بدزاعي الفضول، والتعلم من الماضي والهروب إليه. ويمكن إضافة أسباب أخرى نذكر منها؛ إنّ المعالجة السينمائية للتيمة التاريخية تملك من الامتيازات السمعية والمرئية ما يمكّنها من استدراج إدراك المشاهد، وشد انتباهه، كما أنها تختصر عليه ما يبذله من جهد وما ينفقه من وقت في قراءة كتب التاريخ، فضلا عن الخصوصية الدرامية التشويقية.

ويطلق مصطلح "الفيلم الحربي" في الدلالة على تناول سينمائي تاريخي أعم؛ ذلك «أن نوع الفيلم الحربي قد يبرز بصفاته وخصائصه اتجاه أنواع أخرى؛ كالفيلم التاريخي، والفيلم الثوري، وفيلم السير»¹⁰.

⁷ - رحموني لبنى، التاريخ في الأفلام السينمائية الجزائرية، مجلة التدوين، مخبر الأنساق البنيات النماذج والممارسات، جامعة وهران 2، ع13، 30 سبتمبر 2019، ص4.

⁸ - مراح مراد، الفيلم الروائي التاريخي بين حرفة الحادثة التاريخية والمتخيل السينمائي - أفلام ميل غيبسون أنموذجا - (القلب الشجاع-آلام المسيح)، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه، إشراف د. شرقي محمد، مشروع دراسات سينمائية، قسم الفنون، كلية الآداب والفنون، جامعة أحمد بن بلة - وهران 1، 2018-2019، ص136.

⁹ - رحموني لبنى، التاريخ في الأفلام السينمائية الجزائرية، مرجع سابق، ص6.

¹⁰ - شرقي محمد، الفيلم الثوري الجزائري بين الملحمة الثورية وسينما السير -Biopic-، مجلة الكلم، مختبر اللهجات ومعالجة الكلام، جامعة أحمد بن بلة، وهران 1، الجزائر، ع6، جوان 2018، ص10.

وهناك السينما الثورية التي تطلق عليها عدة تسميات مثل السينما التحررية، وسينما المقاومة، أو السينما النضالية، وفي المقابل نجد السينما المعادية للثورة، بالنسبة للأولى؛ فـ «هي السينما التي انتشرت في العالم منذ النصف الأول من القرن العشرين، بالموازاة مع انتشار الحركات التحررية في العالم، خاصة في دول إفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية، أما الأفلام التي أنتجتها الدول الغربية الاستعمارية والتي تعالج هي الأخرى مواضيع الحروب والنزاعات المسلحة، فتصب في خانة السينما المعادية للثورة، لكونها تسعى بالأساس إلى الاستحواذ على خيرات الشعوب المستضعفة والاستيلاء على ممتلكاتها، والقضاء على الثورات فيها»¹¹.

ظهرت السينما الثورية لرصد صور الكفاح والنضال الشعبي بأبعاده المختلفة، ونقلها للرأي العام، وهذا أنتج في المقابل سينما معادية لها، تقوم على تزييف الحقائق خدمة للأطماع الاستعمارية، ودحضا للثورات الشرعية، وتقديمها على أنها مجرد خروج عن القانون.

التخريج السينمائي للثورة الجزائرية:

تقوم السينما الثورية الجزائرية بكل تجلياتها الجمالية والفكرية على «أفلام لها مرجعية تاريخية قد يكون التاريخ كمصدر للأحداث والشخصيات التاريخية، كما يكون كخلفية لبناء الحدث الدرامي، تدور أحداث هذه الأفلام خلال فترة الثورة التحريرية الجزائرية، وهذه الأفلام تكون إما وثائقية، أو روائية»¹². تستدعي السينما الثورية تاريخ الثورة التحريرية من مداخل عدة؛ أولاً بوصفه مصدراً لاقتباس الوقائع، واستلهاً الشخصيات، والبناء الدرامي للحدث، غير أنها تنقسم من حيث الطرح الفيلمي إلى أفلام وثائقية ذات الطابع التقريرية الذي يقوم على التقديم المباشر للمعطيات أو المعلومات، وأفلام روائية ذات الطابع السردى الحكائي.

تستمد السينما الثورية مادتها من الأحداث والوقائع والشخصيات التاريخية، وهو حال الأفلام الثورية الجزائرية التي تستحضر كل هذه العناصر في بنائها الدرامي من تاريخ حرب التحرير. وبالنظر إلى الأعمال السينمائية التي تناولت تيمة الثورة الجزائرية فإن هناك تراكماً نوعياً يمكن من الرقي إلى مستوى الظاهرة التي نتج عنها توصيف الفيلم الثوري الجزائري الذي يعكس قمة الإبداع السينمائي الجزائري.

¹¹ - لبنى رحموني، الثورة التحريرية في السينما الجزائرية المعاصرة تحليل نصي سيميولوجي لفيلم (Cartouche Gauloise) لمهدي شارف، حوليات جامعة قلمة للعلوم الاجتماعية والإنسانية، ع23، ج1، أبريل 2018، ص504-505.

¹² - قطاف سارة، كتابة سيناريو الأفلام التاريخية من خلال عينة من الأفلام الجزائرية الثورية: "الأفيون والعصا"، "نوة"، "الخارجون عن القانون"، "زبانه" - دراسة تحليلية وصفية-، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في علوم الإعلام والاتصال، تخصص السينما والتلفزيون ووسائل الاتصال الحديثة، إشراف أحمد بجاوي، قسم علوم الإعلام والاتصال، كلية الإعلام، جامعة الجزائر، 2013-2014، ص م.

وقفت السينما موقفا جماليا من الثورة التحريرية فضلا عن الموقف التاريخي، وإذا كانت قد استضافت التاريخ، فإنه قد منحها فرصا متجددة للممارسة والإبداع، ولاستنطاقه في كل مرة من زوايه معينة، ووفق تصور إخراجي مختلف في التجسيد المشهدي.

وإذا تتبعنا المسار التطوري للمنجز السينمائي الثوري الجزائري فإننا سنعود دون شك إلى عتبة البدايات حين «أدرك قادة الثورة أهمية التعريف بالقضية الجزائرية للعالم، فصار للثورة سينمائيوها من المجاهدين يصورون الجنود والمعارك بإمكانيات بسيطة لتصبح صورا حية عن الثورة التحريرية والكفاح المسلح من أجل الحرية ونقل فظائع الاستعمار وبطشه، ومن أمثال السينمائيين الذين حملوا على عاتقهم الأرشفة للثورة عن طريق الصورة نذكر: جمال شندرلي، محمد الأخضر حمينا، الفرنسي رونييه فوتيه وغيرهم»¹³.

شهدت السينما الثورية الجزائرية اتجاها واضحا نحو الأرشفة، في فترة ما قبل الاستقلال، وقد برزت بهذا المنحى في الحصيلة الفيلمية التي قدمت آنذاك، والتي استمرت بعد الثورة التحريرية مهيمنة على المشهد الثقافي السينمائي والمسرحي، محافظة على الذاكرة الوطنية وملهمة للجيل الجديد.

إننا حين نتحدث عن حضور الثورة في السينما الجزائرية فإننا نشير إلى مبحث التأصيل التاريخي، وذلك الدور الريادي لأفلام الثورة وما أنتجه من خطاب واع بهذه المحطة الحاسمة من تاريخ الجزائري، لدى الجمهور داخل الوطن وخارجه.

تحددت خارطة السينما الثورية في الجزائر ما بعد الاستقلال من منطلق مساهمتها الفنية لأحداث ووقائع الثورة التحريرية، «فقد دعت جبهة التحرير الوطني إلى إنشاء مدرسة للسينما سنة 1957، وذلك لتصوير ما يحدث من نضالات ثورية، وكذا تدعيم القضية الوطنية»¹⁴، مع التركيز على أهمية كفاح الشعب وتضحياته من أجل الحرية، ونقل ويلات وجرائم المستعمر.

وقد قدمت شهادات حية عن مجريات الثورة، فضلا عن توثيق وقائعها، وهو المحتوى الذي لازم الفيلم الثوري الجزائري في طوره التكويني، وعرف بعد ذلك استمرار في هذا المسعى، خاصة وأن مقروئية الثورة في النص التاريخي في تراجع مستمر في مقابل تلقي الفيلم السينمائي الثوري وما يشغل عليه من معطيات الصوت والصورة.

وتستمد السينما الثورية قيمتها الجمالية من الإمتاع الذي تحققه للمشاهد، ففي لحظة من اللحظات تقتطعه بكل سلاسة من عالمه الواقعي آخذه إياه إلى عالمها الأيقوني، فضلا عن كونها وسيطا جيدا لنقل المحمول التاريخي؛ فقد «جاءت الأفلام الثورية الجزائرية، لتوثق لتاريخ الجزائر بالصورة والصوت، حيث

¹³ - المرجع نفسه، ص 135-136.

¹⁴ - عبد القادر لصهب، الثورة التحريرية في السينما الجزائرية - قراءة في بانوراما المدونة السينمائية الجزائرية، مجلة آفاق سينمائية، جامعة وهران 1، ع 4،

2017، ص 124.

عمدت السينما إلى إعادة حكي الإرث الثوري من وجهة نظر خاصة، لذلك سارعت الدولة الجزائرية بعد الاستقلال إلى تمويل وإنتاج كل الأعمال السينمائية، التي من شأنها أن تروج لتاريخها البطولي المجيد داخليا وخارجيا»¹⁵.

وبالفعل حين نشاهد كم الأعمال التي قدمت في سياق هذه السياسة الداعمة للحراك السينمائي الثوري آنذاك نلمس أثرها العميق، وإسهاماتها في التأريخ السينمائي للثورة؛ التي أرخت للثورة وأمجادها وبطولات شعبها.

ومن الأفلام الجزائرية التي اتخذت الثورة موضوعا لها: "جزائرنّا" إخراج جمال ستولي ولخضر حامينة، و"ريح الأوراس" لمحمد لخضر حامينة 1966، و"الليل يخاف من الشمس" لمصطفى بديع 1966، و"العفيون والعصا" لأحمد راشدي 1969، و"دورية نحو الشرق" إخراج عمار العسكري 1971، و"معركة الجزائر" للمخرج الإيطالي جيليو بونتيكورفو 1966، وغيرها.

التخريج السينمائي للشخصية الثورية:

وجدت السينما الثورية في الشخصيات التاريخية مادة جيدة للعرض والمعالجة؛ حيث قدمت الأفلام عددا من الشخصيات البارزة في هذا المجال بالنظر إلى الأدوار التي أدتها في صنع المشهد الثوري؛ «فعلى سبيل المثال نجد فيلم معركة الجزائر الذي تطرق إلى شخصية الشهيد علي عمار المدعو علي لابوانت مبرزاً مآثره وأعماله الفدائية ونضاله ... وفيلم الشيخ بوعمامة من إخراج عمر بختي الذي استعرض شخصية الشيخ بوعمامة ومسيرته في المقاومة الشعبية والكفاح ضد المستعمر»¹⁶.

وكثيرا ما وجدت السينما ذاتها في حرج تاريخي وهي بصدد تقديم فيلم عن شخصية تاريخية؛ ذلك أن «إخراج عمل سينمائي مثل فيلم بن بولعيد، ليس بالأمر الهين فهو يتعلق بشخصية بطل له مكانته في تاريخ الجزائر، ولهذا يكون التعامل مع التاريخ في السينما أمر صعب إذ يحتاج إلى تنقيب وتحري دقيق عن المادة التاريخية المراد معالجتها في الأفلام، ومن جهة أخرى فإن العمل وسط الظروف البيئية التي شاهدها في الفيلم كانت تشكل أكثر معاناة، وخطورة على الممثلين، ولهذا ربما يكون العمل السينمائي الثوري أكثر صعوبة»¹⁷.

يعد العمل السينمائي الثوري من أصعب أنواع الصناعة السينمائية؛ كونه يشتغل تحت ضغط الأمانة التاريخية، وبما أن هناك تفاصيل غائبة حتى في النص التاريخي، فإن اجتهد السينما في سد هذه الثغرات لا يسلم من المساءلة، فضلا عن فكرة الإبداع في حد ذاتها تنحصر أكثر كلما حاولنا تجسيدها تحت ضغط الرقابي معين.

¹⁵ - سوالي الحبيب، البنية الفنية للأفلام الثورية في الجزائر، مجلة آفاق سينمائية، جامعة وهران 1، ع 4، 2017، ص 104

¹⁶ - بن عزوزي عبد الله، التاريخ الثوري في السينما الجزائرية فيلم مصطفى بن بولعيد أنموذجا، مرجع سابق، ص 34.

¹⁷ - المرجع نفسه، ص 36.

التخريج السينمائي للحدث الثوري:

تعتمد المعالجة الدرامية في السينما الثورية على العرض الإبداعي للحدث، لما يحمله موضوع الثورة من أهمية بالغة تؤهله لمكانة فنية هائلة من المعالجة الدرامية.

أصبح الفيلم بالنظر إلى المساحة التاريخية التي يعمد إلى تغطيتها سينمائيا، من أهم مصادر التوثيق التاريخي، بل «إن عددا من الباحثين والناقدین في هذا المجال قد ذهب إلى أبعد من ذلك حين اعتبروا أن المخرج المهتم بتجسيد الأحداث التاريخية في أفلامه، هو مؤرخ كغيره من المؤرخين الذين يعتمدون على وسائل أخرى في كتاباتهم، و هو ما أكدّه (Robert Rosenstone) أحد مؤسسي التيار المهتم بالتأريخ عن طريق السينما في الولايات المتحدة الأمريكية»¹⁸.

تتجسد جمالية الحدث في الفيلم الثوري لحظة التلقي؛ حيث نشهد عقد ميثاق إلحاق فني للمشاهد بالعمل السينمائي؛ حيث يقدم له فرصا لتأويل وفهم المرجع التاريخي الذي تستمد منه المعالجة الدرامية مادتها، فضلا عن ترسيخ قيم الثورة ومبادئها لدى الجمهور.

ويطرح حضور التاريخ في السينما الثورية الجزائرية إشكالية الحدث من حيث الأمانة في نقل الوقائع، وعرض التفاصيل؛ خاصة ونحن نعلم أنه لا وجود لتأريخ قد اكتمل في مشهده، «وهذه الإشكالية تسترعي مدارس المدونة الفيلمية الجزائرية واستقراء مادتها الاشتغالية/الموضوعاتية، باعتبار أن الفن عموما رصد لمختلف المحطات التي استوقفت المسار التاريخي للأمة الجزائرية، وسجل للحوادث الكبرى التي طبعت هذا المسار، ومن ثم تبرز القيمة التاريخية للسينما، ذلك أن التاريخ قد يسكت عند الفواصل ويتحاشى الهوامش، غير أن العمل السينمائي تشد اهتماماته حتى دقائق الأمور وصغريات المجريات، فيتوغل في التفاصيل؛ وأحيانا العمل السينمائي تصنعه الجزئيات فيأخذ مادته منها ويجعلها أرضيته التي يعمل عليها لتأسيس تشكيل/أو إعادة تنظيم الأحداث وصياغتها وفق رؤية أخرى غير رؤية المؤرخ»¹⁹.

إن الاهتمامات التاريخية التي عنيت بمناقشتها السينما الثورية الجزائرية في بناء الأحداث هي التي أكسبت الأفلام طابعها التاريخي بغض النظر عن تصنيفها النوعي الذي تراوح بين الوثائقية والروائية. غير أن الحدث التاريخي الذي تقدمه لنا السينما الثورية الجزائرية مهما بلغ من الشمول لن يكون سوى من قبيل المعالجة الجزئية؛ فالثورة بوصفها تيمة تاريخية تختلف عن كونها تيمة سينمائية؛ ذلك أن الوسيط التعبيري في كل منهما مختلف في طبيعته التسجيلية للموقف التاريخي.

احتفت الأفلام الثورية الجزائرية أيما احتفاء بالحدث التاريخي بوصفه العنصر الأساسي الذي بنت عليه تخريجها السينمائي.

¹⁸ - رحوني ليني، التاريخ في الأفلام السينمائية الجزائرية، مرجع سابق، ص 3.

¹⁹ - عبد القادر لصهب، الثورة التحريرية في السينما الجزائرية - قراءة في بانوراما المدونة السينمائية الجزائرية، مرجع سابق، ص 123.

وإذا كانت السينما قد وجدت في ذاتها القدرة الفنية والتقنية التي تتصد بها لمعالجة الخطاب التاريخي، فإنها قد امتلكت إلى جانب ذلك أساسا كافية لطرحها هذا؛ فقد «امتدت رؤاها نحو التاريخ/الأحداث بغية إعادة جدولتها وتوظيفها متوخية في ذلك تقديم رؤى تصويرية حينا، فيأخذ التاريخ بعده المشهدي/التصويري من خلال إعادة إنتاج الحدث ومحاكاته حسب وقائعه ومجرياته سواء الكلية أو التجزئية، وأحيانا أخرى تقدم السينما التاريخ باعتباره مجالا خصبا للاشتغال التخيلي الذي يتأسس على قاعدة تاريخية عامة فيستثمرها كأساس يبني وفقه تمفصلات جزئية لا تكون بالضرورة مطابقة لأحداث التاريخ، ولكنها تأتي لتضع المتلقي في زخم الحدث العام عن طريق المخيلة»²⁰.

تعيد السينما جدولة الحدث التاريخي على طريقتها التصويرية، معتمدة في ذلك أسلوب المحاكاة قصد تقريب الصورة التاريخية كما هي أصلا، بالإضافة إلى الاشتغال التخيلي على الوقائع؛ في سياق إضافة بعض التمفصلات الجزئية غير المطابقة للأحداث التاريخية.

التخريج السينمائي للقيم الوطنية والثورية:

أظهرت السينما عناية خاصة بالخطاب التاريخي؛ حيث أقبلت تستحضره في صوغ المبادئ والقيم الإنسانية المختلفة؛ بل «يعد الفيلم السينمائي صناعة ثقافية بامتياز، كونه أصبح يشكل ذاكرة الشعوب من خلال ما تخزنه من ثقافات وقيم وتراث وتاريخ وعادات وتقاليده، وعند حديثنا عن ماضي الشعوب وتاريخها تبرز الأفلام الثورية كأحد أهم الحوامل التي عملت على المحافظة على القيم الوطنية والثورية ونشرها وتعزيزها في الأوساط الجماهيرية بغية حمايتها من الاندثار، ونقلها عبر الأجيال المتعاقبة حتى تبقى حية لديهم»²¹.

تعد السينما من أهم القطاعات الفنية الحافلة بالزخم الثقافي، بل إنها أصبحت تنصدر المشهد الثقافي بما تقدمه من قيم تراثية وشعبية، وتاريخية، تثبتا لدعائم وعي جماهيري قائم على وصل الماضي بالحاضر، انطلاقا من المحدد الهوياتي الذي يحفظ للشعب خصوصيته، واختلافه.

عنيت أفلمة الثورة ببلورة قيم الحرية والمواطنة، وعملت على ترسيخها لدى الجماهير الشعبية؛ بغية بعث وعي تاريخي جماعي، في سياق ذلك «عملت السينما الجزائرية على الترويج لقيم الثورة التحريرية بغية تعزيز القيم الوطنية لدى مختلف شرائح المجتمع للتمسك بها ولتمجيد بطولات الشهداء، فأنتجت عديد الأفلام الثورية التي لاقت صدى كبيرا لدى الجمهور الجزائري وشكلت له أيقونة عن ماضيه وتاريخه

²⁰ - عبد القادر لصهب، الثورة التحريرية في السينما الجزائرية - قراءة في بانوراما المدونة السينمائية الجزائرية، مرجع سابق، ص 123.

²¹ - مختار جلولي، الثورة التحريرية من خلال السينما الجزائرية - دراسة تحليلية سمبولوجية لفيلم معركة الجزائر، مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية، مج 2، ع 1، يناير 2019، ص 504.

الحافل بالأمجاد والبطولات على غرار فيلم: الأفيون والعصا، دورية نحو الشرق، ربح الجنوب، الشيخ بوعمامة، ثمن الحرية، معركة الجزائر وغيرها»²².

وقد اختلفت هذه الأفلام من حيث مصادرها ورؤى مخرجيها؛ فهناك من اتجه مباشرة إلى تاريخ الثورة الجزائرية يقتبس منه أفكاره، وآخر فضل المرور بالرواية الجزائرية متخذاً منها وسيطاً جيداً للنقل التاريخي؛ فهي تملك مقومات الاستجابة للتجسيد السينمائي مع تفاوت في ذلك.

كثيرة هي الأفلام الجزائرية الثورية التي ركزت على القيم الوطنية، فلا يكاد يخلو منها أي فيلم؛ فقد شكّلت اتجاهها سار على منواله صنّاع هذا النوع من الأفلام؛ «ففي فيلم معركة الجزائر على سبيل المثال خلد لمعركة مهمة وقعت بالعاصمة كان أبطالها الفدائيون والمسيّبون الذين خاضوا حرب الشوارع ضد فرنسا، ونقلوا المعارك من الجبال إلى المدن والأحياء، كما أبرز هذا الفيلم نماذج من القيم الوطنية والثورية؛ كالتضحية، والصمود، والروح الوطنية، والعزيمة، والوفاء، والاستشهاد في سبيل الوطن ... إلخ»²³.

خاتمة:

إنّ القيم التي عملت السينما الثورية الجزائرية منذ تأسيسها على إبرازها عبر تاريخها، قصدت بها التوجيه الفكري لجموع الشعب في اتجاه إعادة موقعة التاريخ الوطني الموقع الذي يستحق، وذلك بإعادة بعثه في قالب تصويري حي، نطالع في تفاصيله ملامح مستقبلنا، وحنمية مصائرنا إنّ نحن فرطنا في الاعتصام بحبل الوطن؛ فما صورّ التضحيات والصمود التي جسّدتها الأفلام السينمائية إلا انعكاساً للهوية، وتاريخ، وأصالة الشعب الجزائري الثائر في سبيل نيل حرّيته التي كتبت بأحرف من الدماء الشريفة؛ فالسينما الثورية الجزائرية مثّلت فضاء تلتقي فيه القيم، وتستنهض به الهمم، وتبرز من خلاله القدوة التي تعزّز القيم الوطنية والدينية، بغية وصل قيم الماضي بالحاضر، للتمسك بها ولتمجيد بطولات الشهداء والوفاء لتضحياتهم في سبيل جزائر حرة أبية.

²² - المرجع نفسه، ص 504.

²³ - مختار جلولي، الثورة التحريرية من خلال السينما الجزائرية - دراسة تحليلية سمبولوجية لفيلم معركة الجزائر، مرجع سابق، ص 504.